

نبذة مختصرة عن حياة الشيخ العلامة عبد الرحمن السعدي

هو العلامة الورع الزاهد ذكّره السلف الشيخ أبو عبد الله عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي التميمي النجدي الحنبلي وترجع أسرة آل سعدي إلى بني عمرو، أحد قبول الكبيرة من قبيلة تميم المشهورة. مولده: ولد الشيخ عبد الرحمن -رحمه الله- في مدينة عنيزة بالقصيم في اليوم الثاني عشر من شهر محرم، من السنة السابعة وثلاثمائة بعد الألف (1307هـ). قبل وفاة (المليدا) الشهيرة سنة واحدة، نشأت: نبأ يتيم الأبوين؛ إذ توفيت والدته سنة (1310 هـ) وعمره أربع سنين، وتوفي والده وعمره سبع سنين سنة (1313 هـ). ولقد كان والد الشيخ عبد الرحمن من وأجنته أكثر من أولادها، ورعته حتى شب، ثم انتقل إلى بيت أبيه الأكبر بعد وفاته وترثيه. وكان حمد جادا صالحا، وهو من حملة القرآن ومن المعمرين. ولقد كان والد الشيخ عبد الرحمن من العلماء، وإماما لمسجد المسوكف بعينزة وكان قد وصى ابنه حمدا برعاية أخيه الأصغر الشيخ عبد الرحمن وقد كانت نشأته مناراً للإعجاب والدهشة ولفت الأنظار؛ لذكائه ورغبته الشديدة في طلب العلم، كما كان محافظا على الصلوات الخمس مع الجماعة، حتى إنه خرج لصلاة الفجر صباح سطوة آل سليم، وكان عمره خمس عشرة سنة، وكان القصر فيه الرامة، وكان الناس متحفيين في منازلهم خوفا على أنفسهم، فقابل بعض الناس فحاطبوه، فقالوا: إلى أين تريد الذهاب؟ فقال: لصلاة الفجر!! فصرخ حتى ألجأه إلى الانصراف إلى بيته، وعلى هذا كان حرصه على ألا تفوته صلاة واحدة في أشد الأزمات التي واجهته في عصره. طلبه للعلم: كما ذكرنا في نشأة الشيخ من حرصه على طلب العلم الشرعي، فقد حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب قبل تمام الثانية عشرة من عمره، واهتم بطلب العلم على علماء بلده، وعلماء البلاد المجاورة لها، كما كان يستفيد من العلماء الذين يقدون، ومن يردون إلى بلده، كما جعل أوقاته كلها في تحصيله للعلم، حفظا وفهما ودراسة ومراجعة واستذكارا، حتى أدرك في صباه من العلم ما لا يدرّكه غيره في زمن طويل فقد، ولم يصرّف في حلّ الذكر ومحاسن الدرس أي صارف، ولا يردّه عن الدروس أي راد، إلا ما يكون في حال الضرورة، كما تعلم القراءة والكتابة في سن مبكرة، ثم انكب على العلم وانقطع له، ولم يشتغل بأي من الأعمال التجارية حرصا على طلب العلم. ولما ألقه أقرانه في طلب العلم أقامه على ما علم تقدمه عليهم، ونبوغه المبرور، وبدعوا باخذون عنه العلم، وما إن تقدم به طلب العلم حتى فتح إليه أبواب العلم، فخرج كما اعتاد عليه علماء بلده من الاهتمام بالفتح الحنبلي فقط، إذ تطلع إلى كتب متعددة من تفسير وحديث وغيره، وعنى بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وسار على نهجهما في اتباع الأدلة والاستنباط. وكان من شدة طلبه للعلم أن قرأ على مشايخ عصره في علم الحديث والمصطلح والأصول والفروع والتفسير وأصول الدين وعلوم العربية، وأكب على المطالعة في كتب الفقه والحديث طلبه حياته، وكان يحفظ كثيرا من المتون العلمية، كما كان واسع الإطلاع في كل جانب من جوانب الحياة التي تتعلق بحياته وحيات الناس؛ ليعرف قائلاتهم، وليكون عنده الدراية الواعية التي يتمشى بها في حياته. ولا أدل على حرصه على طلب العلم من المؤلفات التي كتبها في علوم القرآن والحديث، وكان يعمل كثيرا في كتب حجة الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ولهذا جاء من تأليفه في التفسير والحديث وغيره ورد لا ينضب من العلم، ورفد لا ينضب على متتبع لمؤلفاته. أخلافة: منذ أن تربى وترعرع، كان صالحا محافظا على قواعد الدين ومجبا للخير والإحسان إلى الفقراء والضعفاء، كان ذكيا مجبا للمناقشة ومتواضعا وطيب الأخلاق في معاملته للصغير والكبير والغني والفقير، وكان ورعا زاهدا، عرض عليه القضاء سنة (1360 هـ) فرفض ذلك لاستئصاله بطلب العلم، كما كان عزيز النفس طلق الوجه لا تری عليه سمات الغضب، مجبا لأفعال الخير، كان كثير الاجتماع بالعامّة والخاصة، يشناق الحديث جميع الناس بسهولة وساطة تعامله مع الآخرين. ووصف بأنه أرق من النسيم وأعذب من السلسيل، لا يؤاخذ بالهفوة، ولا يؤاخذ بالجفوة، وتجنب إليه العبيد والقريرب، وكان جوادا بماله ونفسه وعلمه وبكل ما يستطيع القيام به، لا يجل بشيء أبدا مهما كان الظروف. وقد وصف الله له القبول في الأرض، وأعطاها محبة في القلوب، فكان الناس يحبونه محبة لا تقدر نفس، وكان له زعامة شعبية في النفوس، فكانت كلمته مسموعة وأمره مطاعا في كل الأقوال والأعمال التي تصدر عنه. وكان مخلصا للعلم والدين، حرصا على مصالح المسلمين، راجيا من الله أن تكون مجتمعاتهم متمسكة بالدين. فكان كثيرا ما يتصل بالناس، وينتقد أحوالهم، ويحل مشاكلهم، ويعلم الجاهل، ويرشد الضال، ويحقق لهم الخير. فكان -رحمه الله- ابن الجانب متواضعا، عليه وقار العلم والعبادة، بحس أن جالسته كانت من أقرب الناس إليك لما تحده من الزهد والتواضع، ولم تقتصر أخلاقه على ذلك، بل كان تلامذته وطلابه نصيب من ذلك. فكان في التدريس والتعليم من أحسن العلماء وأبلغهم، فكان مرثا وقته، ومصلحا لدرسه، يختار العلوم المثمرة والكتب النافعة، يشاور تلاميذه وتأخذ برأي الأكثرية، وهم يحرصون على تلقى العلم عليه والانتفاع بمؤلفاته التي ألفها. وكان ذا جلد صبر وقوة على ملازمة الدروس وعدم الصجر، صبرا على شدة البرد وعلى شدة الحر في الدروس والتعليم، ولم يسرع عنه أنه تنصر مرة واحدة. إحسانه للناس: وسنذكر مثلا على إحسانه للناس، كما كان له من أفعال كثيرة حسنة جهرية وسرية لم تظهر إلا بعد وفاته، ومن الأمثلة السرية ذكرنا مثلا على ذلك: إن امرأة أرملة لها بيت سكنت فيه، ولحقها دين ورهبت إليه، وحيث أن المرأة ليس لها اكتساب تكتسبه لندرد الذين لذي عليها، فإن الله لم يضرعها وجاءها من يقوم بكفائها من وجه الذي سيوفى لها دينها، عن طريق الشيخ رحمه الله، فكأن يعطيها مما يأتيه من أهل الخير ومن الصدقات التي كان الناس يعطونها إياها من كافة الجهات، ليقسمها على الفقراء والمحتاجين، وبذلك تعاهد أن يعطي تلك المرأة الأرملة كغيرها أرسالا. فكانت تدفع الكثير مما يأتيها لصاحب الدين وتبقي القليل، وما يأتيها من غير الشيخ تقتات به، فأخذت على تلك الحال مدة، فانقضى الدين الذي عليها وبقيت خالصة من الدين قيل أن يأتي الشيخ الأجل بأنهر من أن الدين كان كثيرا. وعندما توفي الشيخ وظهر الخبر للمرأة لمرواته صارت ولا زالت تدعو بالأمفرة والرحمة لما قام به من العمل من جهتها، وهذا مثال يدل على حسن المعاملة للفقراء والمحتاجين والناس أجمعين. وهناك أمثلة، تدل على معاملته في أفعال الخير، كما يقول ابن المقام ذكره هذه الأمثلة وقد ذكرت هذه الأمثلة لأغراضنا بنا إلى التطويل، وإنما ثبتنا بهذا المثال لما يخفى على الناس من حسن معاملته. صفاته الخلقية: كان قصير القامة، متمثل الجسم، أبيض اللون مشربا بالحمرة، مدور الوجه طلقه، كثيف اللحية البيضاء، وقد ابيضت من رأسه وهو صغير. كان شعره كثيفا وكانت الكثافة في شعر لحيته أقرب من رأسه وهو شاب وكذلك وهو كبير. بتلاّا وجهه كأنه قصة، وجهه حسن، عليه نور في غاية الحسن وصفاته اللون، نير لا يرى إلا مستمسا أو دابة أسارير وجهه. علمه: بدأ طلب العلم -رحمه الله- في وقت مبكر، فحفظ القرآن عن ظهر قلب قبل تمام الثانية عشرة من عمره ولما كان عمره ثلاثا وعشرين سنة بدأ يوفق بين طلبه للعلم والتدريس واستفاد وافدا، وقد تلقى عنه الكثيرون وانتفعوا بعلمه واستمر على ذلك إلى سنة خمسين ولثلاثمائة وألف من الهجرة حتى صار الشيخ معلو الطلبة في التعليم والاستفادة. وكما ذكرنا سابقا كلما تقدم به طلب العلم فتحت أمامه آفاق العلم، لذا خرج كما اعتاد عليه علماء بلده من الاهتمام بالفتح الحنبلي فقط، فتوسعت مداركه وتفتق ذهنه وتنوعت علومه من كتب التفسير والحديث والتوحيد، وأكب على كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وأنه لا يطعن في علماء المذاهب كبعض المتهوسين، وكان يميل إلى آراء شيخ الإسلام وتلميذه، وربما يخرج عنهما إذا قوي عنده الدليل ويجعل مذنب الإمام أحمد أساسا له إذا لم يتوفر خلافه. كما خرج من مرحلة التقليد إلى مرحلة الاجتهاد المقيّد، فصار يبرج من الأقوال ما يبرجه الدليل ويصدقه التعليل، وكان إذا عرض عليه مسائل متعددة يجيب عليها باختصار غير مخل، وكانت فتاواه غير طوبلية، فكانت سهلة، مما يدل على أنه سريع البديهة، قصير الذكرة، سريع الكتابة بعد التحرير، ولهذا تجد في مؤلفاته الكثير مما يدل على ذلك من إتصافها بالأسلوب الشيق الذي يفهمه العامة والخاصة. وكان له الفضل في إنشاء مكتبة في مدينة عنيزة وكان ذلك سنة (1358 هـ). أبرز مشايخه: درس الشيخ -رحمه الله- على عدد من المشايخ، فأخذ العلوم والفنون المتنوعة، منهم: الشيخ محمد بن عبد الله بن سليم من علماء بريدة وقرأ القرآن وحفظه على سليمان بن داع في مدرسته بأمر خمار والشيخ إبراهيم بن حمد الجاسر أخذ عنه الحديث عندما عين قاصيا في عنيزة وجلس للتدريس فيها، والشيخ محمد بن عبد الكريم الشبل أخذ عنه الفقه والنحو، والشيخ صالح بن عثمان القاضي قاضي عنيزة أخذ عنه التوحيد والتفسير والفقه وأصوله والنحو، وهو أكثر من قرأ عنه لازمة ملازمة أكثر من عشرين سنة، والشيخ عبد الله بن غاضل العويضي الحربي والشيخ صعب بن عبد الله التويجري والشيخ علي بن محمد بن إبراهيم بن محمد السبائي والشيخ علي بن ناصر أبو وادي قرأ عليه في الحديث والأمهات الست وأجازوه في ذلك، والشيخ محمد الأمين محمود الششتطي نزيل الحجاز قديما ثم رحل إلى بلدة الزبير قرأ عليه التفسير والحديث ومصطلح الحديث أثناء وجوده بمدينة عنيزة "أخذ عنه سندا بالرواية". والشيخ محمد بن الشيخ عبدالعزيز بن محمد بن عبد الله الحافظ مستشار المعارف بالملكة العربية السعودية، وقد قرأ عليه في عنيزة وإبراهيم بن صالح بن إبراهيم الحفظاني أبرز تلامذته؛ فأما تلميذه كحيتون لا يعدون بالأصابع، لكنترهم وتعددهم لحضورهم لمجلس العلم والفتقة، فمنهم: الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين وهو الذي خلف في التدريس والإفتاء في عنيزة وهو إمام المسجد الجامع الكبير بعينزة ومدرس في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالقصيم والشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن عجيل عضوه كبار العلماء، وعضو الهيئة القضائية العليا في وزارة العدل، والشيخ علي بن حمد الصالحي وقد وكل إليه شيوخه تدريس صغار الطلبة وهو والشيخ محمد بن عبد العزيز المطوع في حدود عام 1360 هـ، والشيخ عبد الله بن عبد الرحمن صالح البسام عضو هيئة التمييز بالمنطقة الغربية، والشيخ محمد بن منصور الزامل المدرس بالمعهد العلمي بعينزة سابقا، والشيخ عبد الله بن محمد العوئلي المدرس بالمعهد العلمي بمكة المكرمة والشيخ حمد بن محمد البسام المدرس بالمعهد العلمي بعينزة ثم درس في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وفي القصيم وكان هو الفأقر على الشيخ في الدرس، والشيخ سليمان بن صالح بن حمد بن بسام من أعيان عنيزة والشيخ محمد بن عثمان بن الشيخ صالح القاضي إمام مسجد أم خمار، والشيخ عبد العزيز بن محمد السلطان المدرس بمعهد إمام الدعوة بالرياض وقد سلك طريقة شيخه بالتأليف، والبعد عن الدنيا، والشيخ عبد الرحمن بن عجيل قاضي جيزان والشيخ محمد العبد الرحمن العبدلي والشيخ عبد الله العبد العزيز المطوع شقيق الشيخ محمد المطوع أثنى عليه زملاؤه من تلامذة الشيخ عمر بن سليم إذ كان قد قرأ على الشيخ عمر وصحبه في بعض أسفاره، والشيخ محمد بن عبد الله بن ماع والشيخ علي بن محمد بن زامل آل سليم، وهو أعلم أهل نجد في زمانه بالشيخ، مدرس في معهد عنيزة سابقا، وهو الآن مدرس في كلية الشريعة في القصيم والشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد البسام وكان أحسن تلاميذه في إعادة الدرس بعد إلفاته من الشيخ، والشيخ محمد بن عبدالعزيز بن محمد البسام وهو النائب عن شيوخه في حياته في الإمامة والخطابة، والشيخ عبد الله بن حسن آل بركان، وهو مدرس بالمعهد العلمي بعينزة والشيخ محمد بن سليمان بن عبد العزيز البسام يقيم في مكة المكرمة ومدرس في الحرم المكي الشريف، وكان من أخص أصحابه، والشيخ عبد المحسن الخريدي ولي القضاء في جيزان وعقبرهم كثير وكثير. أهم مؤلفاته: كان من مؤلفاته -رحمه الله- العديد من الكتب والرسائل والفتاوى، بعضها قد طبع والبعض الآخر لم يطبع بعد، وقد استهدف في تأليفه نشر العلم كما تعلمه من العلوم المتخلفة من خلال الكتب التي ألفها والتي جمع بعضها بعد وفاته، وهي بخط يده ومنها: 1- تفسير القرآن الكريم المسمى (تيسير الكريم المنان في تفسير القرآن). 2- "الحق الواسع المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين" وهو توضيح لنونية الإمام ابن القيم رحمه الله. 3- "منهج السالكين وتوضيح الفقه في الدين" (ط)، وهو هذا الكتاب الذي بين أيدينا. 4- "طريق الوصول إلى العلم المأمول بمعرفة القواعد والصواب والأصول" (ط). 5- "الدين الصحيح يحل جميع المشاكل" (ط). 6- "التنبيهات اللطيفة على ما احتوت عليه الواسطية من المباحث المنيفة". 7- "إرشاد أولي الألباب، لمعرفة الفقه بأقرب الطرق وأيسر الأساليب"، وقد رتب على طريقة السؤال والجواب. 8- "هبة قلوب الأبرار وقرّة عيون الأخيار في شرح بواطن الأخبار" وهو شرح للنسبة وتسعين حديثا. 9- "توضيح الكافية الشافية" (نونية ابن القيم المشهورة)، وهو شرح لكثير من محتوياتها، طبع بالمطبعة السلفية، في القاهرة. 10- "الخطب على المناسبات" وهي خلاف الخطبة العصرية القيمة. 11- "الدرة البهية"، شرح القصيدة الثانية في حل المشكلة القهرية لابن تيمية 12- "رسالة لطيفة جامعة، في أصول الفقه المهمة". 13- "القواعد والأصول الجامعة، والفروق والتقاسيم البديعة النافعة". 14- "القواعد الحسان لتفسير القرآن". 15- "تنزيه الدين وحملته ورجاله، مما افتراه القصص في أغلاله". 16- "وجوب التعاون بين المسلمين، وموضوع الجهاد الديني". 17- "القول السديد في مقاصد التوحيد". 18- "تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن". 19- "الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين" رسالة. 20- "التوضيح والبيان لشجرة الإيمان". رسالة. 21- "الوسائل المفيدة للعبادة السعيدة". مختصر. مرضه وفاته: أصيب -رحمه الله- عام واحد وسبعين ولثلاثمائة وألف (1371 هـ) بمرض ضغط الدم وضيق الشرايين، فكان يعتره الإمرة بعد الأخرى وهو صابر عليه مدة خمس سنوات فزاد عليه أخيرا". فكانت أعراضها ظاهرة عليه أحيانا من خلال الكلام قد يقف ولو كان بقرا القرآن ثم يتكلم ويرجع إلى حالته الطبيعية، فيسافر إلى لبنان سنة (1372 هـ) على نفقة الدولة، فأرسلت إليه طائرة تحمل لجنة من الأطباء المهرة لتشخيص المرض، وبعد أن وصل الأطباء رأوا أن يسافر الشيخ إلى لبنان ليتلقى العلاج هناك؛ إذ كان عليل غير متوفر في السعودية آنذاك، فيسافر إليها، وجلس فيها نجوا من شهر حتى شفاه الله، وهذا وقد استفاد من رحلته تلك، بالإضافة إلى العلاج فوائده العلمية، فقد نشر خلال المدة التي قضاه في لبنان على عدد من علمائنا وفصلناهم "منهم الشيخ العلامة محمد ناصر الدين الألباني ". ثم عاد إلى عنيزة ليكمل عمله وتدرسه مع أن الأطباء نصحوه بأن لا يجهد نفسه، وأن يعطي لنفسه الراحة وقلة التفكير، لكنه لم يصبر على ترك العلم، وبدأ التعليم والتأليف والبحث مرة أخرى. ولكن ما لبث أن عادوه المرض مرة ثانية أشد مما كان عليه من قبل، وفي ليلة الأربعاء 22 من شهر جمادى الآخرة سنة (1376 هـ)، أحس بشيء في جسمه مثل البرد والقشعريرة، وبعد أن أكمل الدرس للطلاب أتم صلاة العشاء الإخراة إماما، وبعد السلام أحس بنقل وضعف، فأشار إلى بعض تلاميذه أن يمسه يدك ويذهب به إلى بيته، ففرز ذلك أناس آخرون من أهل حضورا للملاة، وما إن وصل الشيخ إلى بيته حتى أغمي عليه، وما أفاق بعد ذلك وذكر الله وأثنى عليه وحمده، وتكلم مع الموجودين عنده بسلام حسن، وبعد ذلك عادوه الإلزام مرة أخرى فلم يتكلم، وفي الصباح قرأ الطبيب بعد الكشف أن هناك نزيفا في المخ،